# قراءة ثانية لـ :
# نزار قباني

بقلم محيي الدين اسماعيل

لو شئنا ان نقوم اعمال نزار قباني الشعرية في معايير النقد الحديث الشائع ، الذي يحاول أن ينقل الاثر الشعري الى مستويات التجريد النظري ، لعدنا ، بلا ريب، في حديثنا عن أعماله هذه ، الى الحديث عن «النرجسية» وعن « التوتين الذاتي » وغيرهما من الظواهر النفسية التي يسميها علماء النفس ومن سار في ركابهم من نقاد الادب بالعرض ... العرض النفسي، او العرض الجسدي. ولمضينا نبرر ذلك كله ، بتلمسنا مظاهر هذا « العرض » وهو من ثمار « النرجسية » و « التوتين الذاتي » بما نلمحه من تكرار « الصوت الاخر » عند نزار ، وهو ذلك الصوت الانثوي المشخص الذي يحاول ان يجعل من الشاعر موضع « عرض » او « وثنا » في كثير من الاحيان .

ولكننا لم نشأ ذلك ، لاننا لا نؤمن بجدوى مثل هذه الدراسات التجريدية التي تهم المعنيين بالظواهر النفسية أكثر مما تهم المعنيين بالقيمة الذاتية للاثر الفني ، كما لم نشأ أن ننتزع أعمال نزار الشعرية من أرضها ومن أجوائها لنجعل منها مادة لرموز نحللها تحليلا افتراضيا ، على دأب البعض ممن يحاولون أن يتلمسوا الرموز تلمسا خلال الظلمة المنيرة للعمل الفني .

اننا لن نأخذ بهذا الرأي ، كما لن نأخذ بذلك النهج، بل سنحاول ان نسجل ابرز الانطباعات وأوضحها خلال قراءة أعمال نزار الشعرية . وفي ذلك ما فيه ـ قطعا ـ من رفض حاسم لصور من هذا النقد الذي لم يعد يكتب في الهواء الطلق ، بل بجانب رفوف الكتب ... لم يعد يكتب للناس ، بل يكتب للادباء بعضهم بعضا !

من أجل ذلك شرعت أقرأ أعمال نزار الشعرية قراءتي الثانية ، لاسجل الانطباعات التي تكاملت بشكل أوضح من غيرها ، وعلى نحو محدد ، بالنسبة لي ـ على أقل تقدير ـ .

من خلال القراءة الثانية لاشعار نزار ، نجد أن قصة الانثى الكامنة في اعماق نزار قصة باطلة اصلا ، ولن تدل الا على فهم مراهق لشاعر استطاع أن يفترع طريقا جديدة في سكة الشعر العربي الحديث ، بهذا المزج بين التجربة الذاتية والشكل الموضوعي . وليس الشعر الافقي ، تلك الزهرة النامية من دم القلب سوى تحقيق لهذا التوازن بين التجربه والموضوع . انك تحس ، وانت تقرأ نزارا،ذلك الجهد المبدع من اجل العثور على الشكل الافقي . ثم وهو يبذل ذلك الجهد تراه ينظر الى نفسه من خلال كل شيء يسلط انوار فنه عليه . انه شبيه ببودلير ... انه يحاول ان يتأمل وعيه ، وبعفوية وتلقائية هما عفوية الفنان الاصيل وتلقائيته .

ان نزارا يحاول ان يصرف ملاحظاتنا عنه ، لينفرد بنفسه ... لينفرد بكل صغيره يتأملها ... وما أكثر الشؤون الصغيرة التي استطاع نزار أن يحيلها الى وسط تأملي !

فالشؤون الصغيرة هي دوما ذلك الوسط التأملي الذي يلوذ به نزار ليتأمل نفسه من خلاله ، ومن خلال هذا الصوت الاخر الذي يبدو لنا انثويا جدا في كثير من الاحيان .

وان شخصية نزار شخصية قوية،بل ساحقة احيانا، اذ هي شخصية تحس بأنها دوما تحاول أن تعرج فوق فنه، بل ان تستخدم هذا الفن في كثير من الاحيان ، على العكس من تلك الشخصية التي تجدها أحيانا معزولة عن الفن ، فتثير اشفاقك لانها تحولت الى فريسة من فرائس الصدق الفني .

ان نزارا يرسم لنا شخصيته متعالية فوق فنه . ولعل في هذا عنصرا من عناصر الرومانتيكية الباقية في فنه . انك وانت تقرأ اشعار نزار لن تستطيع ان تنسى ان هناك وراء هذه الاشعار شخصية هي شخصية نزار .

وقد يثور هنا سؤال متسرع يقول :

ولكن هل نستطيع ان ننسى شخصية أي فنان ونحن نتأمل قطعة من فنه ؟

الجواب عن ذلك عندنا ، أن المشاركة الوجدانية التي تحسها وأنت تقرأ نزارا ، تختلف اختلافا جوهريا اساسيا

عن مشاركتك الوجدانية لكثير من الشعراء الآخرين. ذلك لانك تحس وأنت تقرأ نزارا بأن هذا الشاعر يحاول دوما، دون ملل ، ان يعيد هو نفسه تمثيل التجربة في دور شعري أمامك ، وليس كذلك جميع الشعراء .

ان نزارا يغنيك بصوته ، وقد تجد انه يخفق في الاداء أحيانا ، ولكنك تظل تستمع اليه من صوته هو ، بهمومه وافراحه وكبريائه وقلقه الوجداني وملامساته الساذجة للشؤون الصغيرة في الحياة .

ويبدو لنا نزار من خلال هذه الشؤون الصغيرة التي كثيرا ما يغرق نفسه فيها لتكون الوسط التأملي له ، ذلك الرجل المهذب الذي يرفض التوحش في كل شيء ، والذي يستطيع ان يؤكد لنا ذلك بهذه القدرة الضخمة على انتقاء الالفاظ العادية واغنائها بالاجواء الشعرية .

ان اشعار نزار فيها شيء من عنصر التحدي في الخلق الفني ، وليس ثمة شك انه تحدي الواثق من نفسه.

فالتعبير البسيط المباشر هو الذي تمتاز به اشعار نزار . وان استخدام نزار للتعبير البسيط المباشر قد مكن هذا الشاعر من توسيع الآفاق البصرية المرئية في قصائده.

والصور البصرية المرئية عند نزار تنطوي على قوة اشعاعية تستأثر باهتمامنا رغم تفاهة الاشياء والشؤون الصغيرة التي يعرضها امامنا كصور مرئية منظورة من عالم مرئي منظور يعج بالتفاهات .

وتبدو صور نزار وكأنها نثار غير مترابط ولامنسجم، بيد انه استطاع في معظم تجاربه الشعرية ان يخلق من هذا النثار من الصور المتباعدة كلا متكاملا مؤثرا يعبر عن موضوع اساسي موحد .

ونزار شاعر ليست لديه خواطر او افكار ، بل كل ما لديه تجربة مجردة تجسدها الصور ، ولا يربط بينهما قوام عقلي ، بل القوام الوجداني هو كل ما لدى نزار في فنه .

وليس لدينا أي دليل في اشعار نزار على انه شاعر يعني بالعقل وبالعودة الى التجربة عودة تحليلية مهذبة . ان كل ما لديه هي هذه الصور المرئية المشحونة بالاشعاع والتي يربط بينها بتناسق منغم ذلك الخيط الوجداني المحكم .

اذن ، فليس لدى نزار عودة بالتجربة الى مجالات التحليل ، برغم ما قد يقال من عرضه لبعض نماذج التطور النفساني . فحتى هذه النماذج ليست سوى صور وجدانية تشير الى تأرجح الوجدان امام قوى الشد والجذب .

انه خلو من الفكر ، ولكنه ليس خلوا من النظرة المحكمة للحياة ، شأنه في ذلك شأن أي شاعر صادق مع نفسه ومع تجربته ومع عنائه في الصوغ الفني . ان اشعاره لا تقدم لك نقاشا حياتيا ، بل جل ما تستطيع ان تقدمه لك هو ذلك التداعي الواسع الذي يشمل معظم احاسيسنا في الحياة وازاءها .

ان نزارا الشاعر يقدم لك عالما كئيبا ـ لا حزينا ولا مأساويا ـ مصنوعا من الاقمشة المترفة والاساور والعاج والصلبان الذهبية ... انه كعالم بودلير الكئيب. والشاعر ازاء هذا العالم يقف على مبعدة منه ، وهذا هو السر في اننا نجد شخصية نزار تبدو دوما من وراء اشعاره ، بقوة وبملامح نفسية واضحة ..

انه دوما يقف وراء تخوم عالمه هذا !.. انه دوما يكره

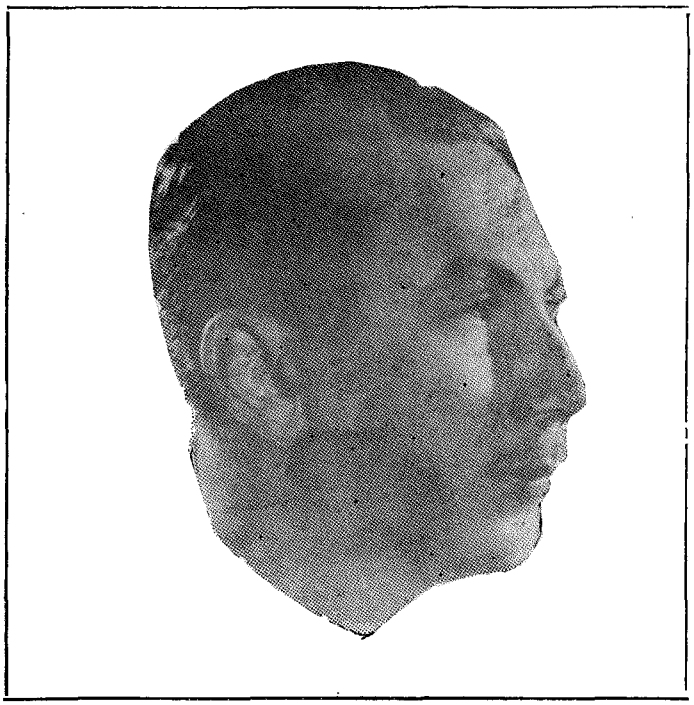

هذا العالم ، او على الاقل يستخف به ، ولكنه يحب كره هذا العالم .

وبالرغم من ان نزار يبدو في كثير من الاحيان يحاول الازورار عن هذا العالم البارد بنماذجه الطينية ، الا انه لا يتحمل ، بأي شكل ، مسؤولية الرفض ، اذ ليست هناك مواقف يقارعها . كل شيء يكاد يكون مواتا ، لانه من الطين ومن الاقمشة والرخام ... الكل اذرعة ميتة بالرغم من بضاضتها ونصاعتها وعاجيتها !

ذلك هو الوضع الانساني .. وان شئت فقل عن ذلك فلسفة !

ذلك هو الوضع الانساني . فالموقف عند نزار هو العالم الخفي المستور الذي لم يكلف نزار نفسه عبء تحمل هتك استاره . فهو من حيث جغرافية الشعور

والاحساس وملامسة الحياة يقف قريبا جدا من عالم بودلير ، مع فارق واحد ، ذلك ان بودلير داعية من دعاة الرحيل عن عالم الطنافس الوثيرة والمباخر والعاج الاسمر، بينما نزار يترفع حتى عن دعوة الرحيل هذه . انه لا يقول مع بودلير بأن عليه ان ينشر قلاعه الى حيث عالم الروعة الحقيقي الارفع من هذا العالم الذي يغوص فيه ، والى حيث الطمأنينة والمتعة !...

ونزار في هذا الموقف الذي تعلنه ضمنا جميع قصائده تقريبا ، انما يفصح عن عدمية منقطعة النظير بين شعرائنا المعاصرين .

ان العالم عنده قطعة موات ... قطعة من الرخام ومن انسجة « التفتا » . العالم ليس سوى ظاهرة جمالية، ولاستخدم اللفظة التكنيكية ، لكي ابعد عن عالمه حرور الدم المتدفق .. فأقول ليس عالم نزار سوى ظاهرة «استتيكية» مجردة تستحق التأمل بقدر ما تستحق ان ينظر اليها باستخفاف ...

العالم قطعة من رخام بارد والدم لن يتدفق في العروق المرمرية ، بل في شرايين الفنان وحده الذي يتسربل وحده بقميص الدم . والشعر ليس تعبيرا عن هذه « الكمية » من العالم ، بل هو تصعيد بقضية الشاعر وتجديد لهويته .

ان مولد الشاعر عن نزار هو من هذا الموعد الاخضر بين الشاعر وهذه الكتلة من العالم ... هذا الموعد الذي يتخطى المعقول ، ومن لم يقل شعرا فهو حيوان ابكم .. هو جزء من تلك الكتلة الموات !

ولعل من مواطن الروعة في اعمال نزار الشعرية التي لن يتكشف كنزها اللؤلؤى من الوهلة الاولى ، هذا الموقف المنسجم الذي يعوض به عن ادراكه للعالم والحياة ادراكا عقلانيا والذي ينتهي به الى رفض الاستقالة من تأمل العالم الرخامي البارد والشؤون الصغيرة ... فكل شيء في هذا العالم قد ولد من اجل ان يكون الحيوان الابكم حيوانا ناطقا .. من اجل ان يكون شاعرا .

وهو في هذا الفهم للعالم ومكان الانسان الشاعر فيه ، يتجاوز موقف اصحاب النظرة النفعية في الفن كما يتجاوز اصحاب النظرة « الهدوفية » بخطوة عملاق ... من غير ان يستوقفه نقاش ..

فالشؤون الصغيرة التي يستلهمها نزار شعره ليست، ببساطتها ، سوى منابع للشعور الجارف بالحياة ...

كل حيوان حتى الحيوان الابكم يذرف الدموع من اجل مصير ديدمونة ، ولكن الحيوان الناطق وحده هو الذي يهزه منظر « شال » انيق ملقى على السرير من سهرة امس !

ان نزار هو الشاعر الذي يفكر باحساسه ويتأمل بعصبه الحي ، ثم يستسلم لتفاهة الحياة عن طواعية ، لكي يدعها تمر من خلال احاسيسه وهو شبه يقظان ... تمر وفي فمه سكاة وهو مستلق يبتسم .

ومن هنا انعدم عنصر التمرد في اشعار نزار . انه شاعر يستعرض العالم في حلمه دون ان يريق قطرة من دم حانق . وان انعدام عنصر التمرد في اشعاره ، افقد فنه ذلك العنصر المظلم الاسيان الذي يشيع في اعمال كثير من شعرائنا . ولهذا آثرنا ان نصف عالمه بانه « عالم كئيب » وليس « عالما حزينا مأساويا » .

ان نزارا ــ كما يبدو لنا ــ لا يضيق ذرعا برخامية العالم وجموده وبروده ... انه يحاول ان يعشق الرخام ، لانه ليس في العالم سوى هذه المواكب الرخامية الباردة .

فهل هذه رومنطيقية من نزار ؟

ان الرومنطيقي لو عاش مثل هذا العالم الذي يعيشه نزار ، لارتد فورا الى الوراء ، .. لحاول ان يعيش الماضي، بيد ان نزار ، بعصبه السليم ، قد وطد العزم على ان يستلهم عالمه هذا ... عالم الشؤون الصغيرة دون ارتداد ولا اقتحام .

ان نزارا من اولئك الشعراء الذين استطاعوا ان يقولوا « نعم ! » بالحرف الكبير في وجه الحياة ، دون ان يتزحزحوا من مواضع اقدامهم . انه يرفض كل هجرة سندبادية معاصرة . ومن اجل ذلك لا تملك الا ان تحبه ، لانه قريب منك ، بل يكاد يغطيك بظلاله ، بحنو ودونما صخب ...

***

تلك هي انطباعات عاجلة اسجلها بعد قراءتي الثانية لمعظم اعمال نزار قباني الشعرية ، كتبتها املا الا يكون هذا الشاعر نهاية عهد في شعرنا العربي الحديث !

القاهرة — **محيي الدين اسماعيل**


فندق نيو پالاس
ادارة : فتحي نوفل
وسط راقت
خدمة ممتازة
مياه ساخنة
تليفونات بالغرف
جناح خاص
للعائلات
أسعار معتدلة
مصعدان حديثان

ت : ٤٥٩٣٦
ت ت : ٧٩٧٩١
١٧ شارع سليمان الحلبي
(دوبريه سابقا) القاهرة
خلف سينما الكورسال بعماد الدين
New Palace Hotel 17 Sh. Soliman el Halaby Telephone 45936 Cairo